



يفتح الإخفاق الروسي في تحقيق نتائج في معارك أرياف حماة وإدلب الباب أمام التساؤل عمّا إذا كانت ستتشكل إدلب وجوارها منعطفاً في الصراع السوري الذي باتت تسيطر روسيا على مجرياته بدرجة كبيرة.

قد يكون الكلام عن هزيمة روسية في الشمال السوري نوعاً من رفع سقف الآمال بدرجة كبيرة، في حدث ما زال من المبكر إصدار حكم بخصوصه، وتعيين المنتصر من المهزوم. ولكن لا يبدو أن وصف الإخفاق للفعل الروسي، أقله حتى اللحظة، يدخل في سياق المبالغة في وصف مجريات المعارك في الشمال السوري، بقدر ما هو واقع حاصل على الأرض، تؤكده؛ ليس فقط الخسائر الكبيرة في العتاد والجنود على طرف روسيا و مليشياتها، وإنما أيضاً مناورات روسيا لإقامة هدنة، وإطلاق ورشة مباحثات روسية – تركية، لإيجاد مخرج من هذا الإستعصاء الميداني.

فهل يمكن البناء على هذا الإخفاق لكسر الإستراتيجية الروسية المتدرجية في قضم المناطق السورية، وإنهاك الخصوم وإخراجهم من دائرة الفعل، وإخضاعهم لنظام الأسد، كما حصل في حلب والغوطة الشرقية وجنوب سوريا؟ ثمة عاملان طالما ساعدا روسيا على تحقيق ما سمته انتصاراً في سوريا، شبكة التفاهمات التي أجرتها مع اللاعبين الإقليميين الذين لديهم مونة على المعارضة، وقد أنسهم ذلك في تفكيك قوة تلك الفصائل، وإغلاق طرق إمدادها، وإضعاف خياراتها إلى حدود صفرية، والخلافات الهائلة التي نشبت بين الفصائل، قاتلها مع بعضها وخسارتها العناصر والعتاد، وإنخفاض رغبة عناصرها في قتال قوات العدو.

بالإضافة إلى هذين العاملين، شكل وجود ملجاً لهذه الفصائل وعناصرها، إدلب وريف حلب، محفزاً لها لترك القتال، ما دامت تلك المناطق ستصبح بدائل، ليس لممارسة النضال ضد الأسد، وإنما لتشكيل هيكل سلطوية ثورية، وهو حلمٌ عتيد لدى الفصائل. على ذلك، يأتي تأثير سلاح الفضاء الجوي الروسي في ذيل القائمة، هذا ليس كلاماً إنشائياً، بل أثبتته معارك

إذلِبُ أخِيرًا، فحين ذهبت الفصائل إلى ترميم وصيانتها الذاتية، وتوفَّر طرِيقٌ إمداد جيد، وكذلك القتال، لأنَّه لا تُوجَد بِدائلٍ أخْرى، أو لأنَّ البدائل كلَّها سيئة، فإنَّها استطاعت الصمود، والتقدُّم أحياناً، على الرُّغم من وجود الشروط نفسها التي قاتلت بها تلك الفصائل في مناطقٍ أخْرى، وانسحبت لصالح الروس، وتمَّ تفسير هذه التراجُعات بالتدخل الجوي الروسي الخامِس.

يفيد تاريخ الحروب المماثلة التي خاضتها قوى عظمى ضدَّ أطْرافٍ أقلَّ قوَّةً منها، حرباً أميرِكا في فيتنام وروسيا في أفغانستان، أنَّ هذه القوى استخدمت كثافة نيرانية هائلة في هذه الحروب، وخصوصاً بأسلحة الجو، وكذلك حصلت على مساندة كبيرة من قوى محلية، لكنَّها لم تحقَّ نتائج حاسمة، والسبب أنَّ القوَّة المقاومة لها أحسنَت إستخدام المزايا التي تملَّكتها بوصفها جيوشاً غير نظامية، لديها مرونة أكبر في العمل والتحرك، فضلاً عن معرفتها بالأرض التي تحارب عليها، واستثمارها كلَّ العوامل المتوفرة، بما فيها ظروف الطقس، فضلاً عن متابعتها التطورات السياسية، سواء داخل بيئات الخصوم؛ أو في البيئات الإقليمية والدولية عموماً.

ثُمَّةً معطياتٌ كثيرةً تغيَّرت قد تساعد في إضعاف المشروع الروسي، أو على الأقل التصور الروسي لإدارة سوريا بعد الحرب، وإن تمَّ التنبُّه لها من القيادات السياسية والعسكرية للمعارضة السورية، سيكون لها نتائج مهمَّة في سياق الصراع المستقبلي. أول تلك المتغيرات، التناقض الجلي بين إيران وروسيا، فمن الصعب عودة إيران لمساعدة روسيا، وخصوصاً في مناطق الشمال، كما أنَّ إيران مصلحة في إضعاف الروس، والتقليل من هيبيتهم، فإذا كان صارت على قناعةٍ تامة بأنَّ الروس يريدون إضعاف وجودها في سوريا، بل وإخراجها نهائياً إن استطاعوا، بدليل موافقتهم على حضور مؤتمر "القدس الثلاثي"، المخصص أصلًا لبحث إخراج سوريا من إيران.

لن تخوض إيران أيَّ معركة في سوريا تحت جناح روسيا، بشكل جدي، ما لم تقبض نتائجها الإستراتيجية بشكل مسبق، وستحاول الإحتفاظ بقوتها لخطر قادم، ليس الروس خارجه، وخصوصاً بعد تكرار الصدامات بين الطرفين، كان آخرها في دير الزور والبوكمال، فضلاً عن أنَّ مليشيات إيران ضعفت، وجرى تفكيك بعضها، وإنسحاب جزء منها، كما أنَّ حزب الله يواجه إحتمالات حرب إسرائيلية، وحتى إيران نفسها أصبحت داخل دائرة خطر الحرب، بعد التطورات الأخيرة في الخليج.

وثُمَّةً متغيرات حصلت في ذهنية القيادة الروسية، فلم تعد مندفعَة للحرب من دون شرط أو قيد، سوى ظروف الميدان، إذ يبدو أنَّ روسيا بدأت بفتح خطوط تفاوض حول مستقبل وجودها في سوريا، مع قوى دولية وإقليمية. وبالتالي هي مضطَرَّة لمراعاة هذه التطورات، وقطف ثمار وجودها، وهذا لا شك سيخفَّض حافزية الهجوم لديها، لصالح تثمير خطوط التفاوض والمساومات مع الأطراف المؤثرة، أو التي سيكون لها أدوار مهمَّة في الحساب الروسي، وخصوصاً على صعيد عملية إعادة الإعمار، وإستقرار الوجود الروسي في شرق المتوسط.

للفصائل المقاتلة الدور الأَبْرَز في كلَّ هذه التطورات، فصمودها سيضعف خيارات روسيا، ويربكها بدرجة كبيرة، كما أنَّ التكتيكات الجديدة التي تتبعها في المعارك، بالإضافة إلى بلورة قواها والاستفادة من المزايا التي تملَّكتها على الأرض، وحماس واندفاع كواحدتها في صد الهجوم الروسي، كلَّ تلك ستكون عوامل مساعدة على كسر الإستراتيجية التي اتبَعَتها روسيا في السنوات الثلاث الأخيرة.

ليس مطلوبًا من فصائل المعارضة سحق الوجود الروسي في سوريا، فلا إمكاناتهم ولا الواقع الدولي يسمحان بهذا، لكن صمودهم سيجبر روسيا على تغيير المعادلة التي تبنَّتها حتى اللحظة، والتي تميَّل إلى جعل الأسد المنتصر الوحيد على حساب ملايين السوريين، فهل من الممكن رؤية هذا التغيير؟

المصادر:

العربي الجديد